## نسوة على شفا جرف

الأكواخ الطينية نائمة باكرا. لا إنارة مشتغلة ولا نار مشتعلة. كل شيء يبدو هادئا، والظلام يعم المكان. وحده صوتُ خرير مياه نهر درعة الذي يَفلق الدوار نصفين يسمع من بعيد. حتى فَصْلُ النهرِ للدوارِ ليس عادلا؛ فالشق الأول ضيق شيئا ما، ويضم أكواخ الناس الطينية والإسمنتية، كما يضم مساحة منيفة من الواحة. في ما يضم الشق الثاني مساحة ضيقة ومقفرة تحدها الجبال والهضاب الرملية الزاحفة.

نخل الواحة متماسك أكثر من الناس. قريبا من بعضه كان. يعانق النخل، ربما، بعضه البعض في الليل! فقد تنتقل إليه عدوى الحياء و"حشومة"، كما بين الأزواج في الدوار. فقد كان الحاج قدور يحكي لأحفاده أن النخل يعانق بعضه البعض في الليل، وقد أقسم كم بمرة بأعظم الأيمان وأغلظها، وبعيونه التي سيأكلها الدود أنه كان يسقي حقله ذات ليلة مقمرة باردة، فسمع أصواتا غريبة تشبه الأنين والنحيب تصدر من كومة نخلات، ثم إنه رأى نخلة عانقت نخلة أخرى ثم بَكَت. لكن الناس لم يصدقوا تلك الحكاية. خاصة حينما استيقظوا في الصباح، فرأوا النخل الذي حدثهم عنه الحاج قدور قد سقط على رأسه. لقد كفر الناس في درعة بالحكاية والأحجية، واتجهوا إلى عوالم الموضة، والزينة، والتكنولوجيا؛ فغاصوا في عوالم افتراضية، وحَلمُوا كثيرا حتى صارت الحكايات الشعبية والقصص في خبر كان.

هل كان الحاج قدور يكذب، أم كان يتوهم، أم أن الحكاية لم تعد تؤثر في الناس؟

سأصدق حكاية الحاج قدور. فحياة النخل في الواحة كحياة الناس؛ فهناك النخلات الجميلات والقبيحات، الطويلات والقصيرات، الولودات والعاقر، الثيب والعذارى، النحيفات والسمينات، الشامخات والمنحنيات، ولا أستبعد أن تكون فيها راهبات وفاسقات.. كل هذا وغيره يبين تعلق النخل بالناس وحبه، والرغبة في تقليده، وبهذا يكون النخل ابن بيئته..لكن ما لا يختلف فيه أهالي الدوار عن النخل هو الصبر وعدم الاستسلام أمام قسوة الظروف.

تبدو الجهة الأخرى، التي حدثتكم عنها، للوادي شبه صحراء؛ كثبان من الرمال، ومرتفعات جبلية.. لا يعير الناس، في ما مضى، أدنى اهتمام لهذه الأرض الفلاة. أما اليوم، وبفعل الجشع، والرغبة في الغنى وكسب المال، فقد صارت تساوي الذهب. صار الناس يزرعون هذه الأرض بطيخا أحمر.

يعم صوت مضخات المياه المكان، وتسافر الدقات (داق داق داق) في الجو معلنة عن خطر يهدد الفرشة المائية الباطنية، والأهالي، من ثم، بالرحيل. يخاف الحمام، حسون، الكروان، والهدهد، والفَراشة، فيعلنون الهجرة في تجاه المجهول. ما أقبح الإنسان. يقتل بكل تلذذ وتفنن ليملأ جيوبه.

يحدث كل هذا، والنساء يتألمن في صمت، ويتمتعن بأحدية وملابس مستعملة. بعض الرجال، أيضا، لا حول لهم ولا قوة. يفنون شبابهم في الشركات، وفي الأعمال الشاقة في المدن، ثم يعودوا ليموتوا قرب النهر، أو في

أكواخهم الطينية بنزلة برد حادة، أو لسعة عقرب سام، أو لدغة أفعى، أو بضيق في التنفس. أما الذين فضلوا البقاء قرب زوجاتهم، فيفنون شبابهم بين الحقول الصغيرة التي تشبه رقعة الشطرنج. يزرعون حفرا من الحبق والنعناع، والشويلاء، والبصل، والكروم، والبرسم، ويجنون ثمارا جافة، وحبات من اللوز معدودات، ويركلون حميرهم وقت الحصاد، ولا يتوانون عن النزاعات العائلية عن هذه الحفر وقت الإرث. يموت المالك، ويهلك مرتين؛ يهلك؛ لأنه رُزِئَ في شبابه الذي أفناه في حرث وسقي أرض يباب، ويهلك ثانية؛ لأن فروعه يُلحِقونه، في قبره، أشد السّباب والشتائم؛ لأنه خلَّف أرضا متنازعا حولها.

كثيرا ما سقطت أجساد، ورفعت أرواح في الميراث. يهلك الهالك، ويتقاتل الفروع لأجل شبر أو شبرين من أرض بيداء.

- "لمَ لمْ يفكر هؤلاء، يوما، أن يطالبوا بما هو أحسن؟". قالت النفس الأمارة بالسوء.